وهي على ربوة تشرف على دجلة الجارية في شرقها فقطعنا النهر على جسر من القوارب كما فعلنا في الجزيرة. واذا بعامل اوقفنا ليتفقد حاجاتنا فاخذ تذاكرنا وصندوقة مذبحنا الثقال وكتاب صلاتنا وأبى ان يردّها فأكّدنا لهُ أننا نطالبهُ بها على يد قنصل فرنسة. ثم دخلنا البلد وسرنا توًّا الى دير حضرة الآباء الدومنيكان فاكرموا مثوانا واستقبلونا بمزيد الحفاوة. وكان رئيسهم حضرة الاب ديلامات (R. P. Delamette) نائباً عن حضرة الاب دوقال الذي كان الكرسي الرسولي استدعاه الى رومية قبل شهر ليعهد اليهِ بقصادة سوريَّة (البقية لعدد آخر)

النهضة الكاثوليكية في حلب

والرسالات الفرنسويَّة في القرن السابع عشر

للاب فرنسوا تورنيز اليسوعي (تابع)

انَّ النصف الثاني من القرن السابع عشر يستحقّ ان يُدعى العصر الذهبي للنهضة الكاثوليكيَّة في الشرق. فانَّ المرسلين الفرنسويين الذين كانوا بهمّتهم وقنانيهم زرعوا بالدموع اخذوا في اواسط القرن المذكور يحصدون بالفرح

على انَّ ذلك الفرح انَّما كان فرح القلب وتعزية الباطن اما في الخارج فانَّ حالتهم بقيت حرجة في مضايقة دائمة ممَّا يُصيبهم او يصيب ابناءهم الروحيين. ومن تصفّح الرسائل العديدة التي كتبها في ذلك العهد المرسلون وقناصل الدول وسفراء الاستانة يأخذه العجب من كثرة البلايا المحدقة بالرهبان الذين كانوا يفلحون كرم الرب في جهات الشرق ويتذكّر تعداد بولس الاناء المصطفى لاخطاره في التبشير حيث قال (٢ كور ١١: ٢٦) «كنت في اخطار السيوف وفي اخطار اللصوص وفي اخطار من امَّتي واخطار من الامم واخطار في المدينة واخطار في البريَّة واخطار في البحر واخطار بين الاخوة الكذبة وفي التعب والكدّ والاسهار الكثيرة والجوع والعطش والاصوام الكثيرة والبرد والعُري...»

فهذا الوصف ينطبق بتمامهِ على حالة المرسلين. فانَّهم بوجودهم في بلاد اجنبيَّة

ما كانوا يعرفون لا اهلها ولا عاداتها ولا لغتها كانوا معرَّضين كل يوم لمضايق شتى. فكانوا لا يعيشون الَّا من بعض حسنات تُرسل اليهم من بلادهم اذا تأخرت بلغت حالهم الى الضنك والعوز. وقد افادنا الاب بسون في تاريخه *La Syrie* (Besson. p.31) ان معاشهم كان كصوم متواصل ثم قال: « قلما نعرف رسالةً اجنبيَّة يعيش اصحابها في شظف من العيش اعظم من المرسلين الموجودين في هذه الانحاء. »

وكذلك المسكن فان المرسلين في حلب كانوا في اسوأ حال. وما نعلمهُ عن اليسوعيين خصوصاً انهم لم يمكنهم على طول القرن السابع عشر ان يقتنوا لهم بيتاً يسكنونهُ فكانوا يبيتون غالباً في خان الفرنج في حجرتين او ثلاث حجر يتكرَّم عليهم بها قناصل الدولة الفرنسويَّة. فهناك يقضون عامَّة اشغالهم الروحية والادبيَّة والماديَّة. ومثلهم الكبوشيون والكرمليتان

وكانوا اذا سنحوا من تلك الحالة واستأجروا لهم بيتاً وجدوا من اعداء دينهم من ضروب المصادرات واصناف المحن ما يضطرُّهم الى الرجوع الى خان الفرنج فيعيشون في ضنك وازدحام لا يمكنهم التصرف في اعمالهم الرسوليَّة كما يشاؤون. ولولا ان لارباب الطوائف كانوا يدعونهم للوعظ والتعليم وتوزيع الاسرار في كنائسهم لما استطاعوا خدمة الشرقيين في مهامِّهم الروحيَّة

وهذه المشاق التي كانوا يقاسونها في منازلهم كانت تتضاعف اذا خرجوا. فانَّ بعض اشقياء المسلمين كانوا يرقبونهم فتارةً يوسعونهم شتماً وتارةً يضربونهم بعصيهم او سيوفهم وكثيراً ما كانوا يجرِّدونهم من بعض ثيابهم او يطالبونهم بالمال او يلكمونهم مجدِّفين على دينهم الى ان يقوم احد من عقلائهم فيردَّ عنهم اولئك الاجلاف لاسيما اذا راى صبر الرهبان وإغضاءهم عن مضطهديهم

وكان الاذى يلحق بهم في بعض الاحيان من قبل الولاة واصحاب الامر. فانَّ حلب كان يتوالى فيها الحكام الاتراك فيسرعون الى جمع المال بكل ما امكنهم من الوسائط لعلمهم بانَّ وقتهم قصير وان الدولة تطالبهم بمبالغ عظيمة لا يمكنهم الحصول عليها الَّا بالوسائل الذميمة. وكان الولاة يطمعون خاصة بالمرسلين ويجاء ان يصيبوا سهماً كبيراً من المال المرغوب. لنا على ذلك شواهد متعدِّدة ملأ كتباً ضخمة منها ما اخبره القنصل الفرنسوي پيكه (Picquet) عن بشير باشا الذي تولى

الحكم من السنة ١٦٥١ الى ١٦٥٦ فهذا مدّة ولايته لم يألُ جهدًا في مصادرة الحلبيين لاختلاس اموالهم. ثم جعل العيون على المرسلين ليرصدوهم ليلًا مع نهار حتى اذا وجدوهم يصلّون في غير المعبد القنصلي يعلمونهُ بامرهم فيصادرهم بالمال. فزجَّ لذلك في الحبس الاب شيزو (A. Chezaud) اليسوعي واحد الاخوة الساعدين ريمون بورجوا (R. Bourgeois) وضيَّق عليهما في السجن وامر بضربهما حتى ان الاب شيزو مرض مرضاً عضالًا فرحمها بعض الفرنج وفداهما بمبلغ من المال. وكذلك راهبان كبوشيّان كبلهما بشير باشا بالاغلال ولم يزل يصادرهما حتى خلصهما القنصل الفرنسوي بماله الخاصّ

على انَّ المرسلين الفرنسويين كانوا لا يعدُّون اتعابهم وآلامهم شيئاً في سبيل خلاص القريب فانَّهم مع فقرهم المُدقع كانوا يسعفون المساكين على قدر استطاعتهم فيقتسمون معهم القليل الذي لديهم. وكانوا غالباً يحرّضون تجار الفرنج على الاحسان اليهم. وكانوا يطوفون البيوت ليجمعوا الصدقات للاسرى والعجزة فيلطّفون بذلك اوجاعهم وينتهزون الفرصة ليلهموهم الصبر والتسليم لمشيئته تعالى وممارسة بقيّة الفضائل المسيحيّة

وقد امتاز المرسلون بحنانهم على المرضى وعنايتهم بالمسقومين فكانوا يعودونهم على اختلاف اديانهم ويوزعون عليهم الادوية. بل جعل المرسلون يدرسون الطبّ لمعالجتهم اذ كان الاطبّاء في ذلك الوقت اعزّ من بيض الانوق. فاشتهر في الطبابة الاب شيزو السابق ذكرهُ (١ ومثلهُ الاب گوده (٢ وكذلك الاب سيلوستروس الكرملتاني (٣ والآباء الكبوشيون (٤ فكانت هذه اعمال الرحمة الجسدية كوسيلة لمساعدة النفوس وإعدادها لآخرتها

وقد ظهرت خصوصاً محبة المرسلين للقريب في حلب مدة الاوبئة العديدة التي فتكت بأهلها في القرن السابع عشر. فان الطاعون فشا في انحاء الشام ثماني دفعات في ذلك العهد وكان لحلب من ضرباته السهم الأفوز لاسيما في السنوات ١٦٥٢ و١٦٦١

---

١) اطلب الآثار الخطيّة لتاريخ الكنائس الشرقيّة (Rabbath: *Documents*, I, 53, 400)

٢) الآثار الخطيّة (Ib. I, 420)

٣) فيها (Ib. I, 438-439)

٤) فيها (Ib. I, 519)

و١٦٦٩ و١٦٨٦ و١٦٩٢ فان العدوى كانت تفتك فتكاً ذريعاً بالاهلين وحلب منقطعة عن المدن بعيدة من الجبال فكان يموت بوقت قريب الوف مؤلفة . كتب المرسلون ان سنة ١٦٩٢ كان عدد موتى النصارى كل يوم مائتين اما المسلمون فكان ينيف عدد موتاهم على الألف وبلغ في طاعون ١٦٦٩ العشرة الآلاف في احد الايام حتى قيل ان ثلث بل نصف اهل حلب ذهبوا ضحيّة الوباء . فالرهبان الفرنسويون كانوا اذا تأكد وقوع الموتان تخصصوا بخدمة المطعونين وسكنوا في وسطهم منقطعين عن اخوتهم الرهبان ليثابروا دونئذ على اشغالهم مع السالمين . وقد ذكر الآباء الكرمليتان في سجلاتهم (١ اسماء المرسلين من الفرنسيسيين والكبوشيين والكرمليتان واليسوعيين الذين نالوا من رؤسائهم نعمة المخاطرة بحياتهم في خدمة المصابين وقد مات بعضهم شهداء محبتهم من رهبانيات مختلفة منهم سنة ١٦٦٩ الاب جان پيار (Jean Pierre de la Mère de Dieu) رئيس الكرمليتان

فالله تعالى لم يدع كل هذه الاتعاب والشدائد التي قاساها المرسلون محبّةً بالنفوس دون جزاء بل اتت باثمارها الشهيّة وفقاً لمواعيد المخلص حيث قال (يوحنا ١٢ : ٢٤) : « الحقّ الحقّ اقول لكم انّ حبة الحنطة التي تقع في الارض ان لم تمت بقيت وحدها وان ماتت اتت بثمر كثير »

قلنا انّ هذه الاثمار الجيدة التي جناها المرسلون الفرنسيون في حلب انما كانت في القسم الثاني من القرن السابع عشر . والفضل في ذلك لا يعود فقط للمرسلين بل لقناصل دولتهم الذين كانوا في اواسط ذلك الجيل من ذوي الدين والشهامة فجاروا الرهبان في خدمة الكثلكة . نخصّ منهم بالذكر القنصل انج دي بونين (L'Ange de Bonin) من ١٦٣٩ الى ١٦٥٢ ثمّ فرنسوا پيكه (Fr. Picquet) من ١٦٥٢ الى ١٦٦١ وفرنسوا بارون (Fr. Baron) من ١٦٦١ الى ١٦٦٩

فهؤلاء الثلثة قد اجمع معاصروهم على اطراء محامدهم . فانّ انج دي بونين احسن ادارة امور دولته مدّة قنصليّته في حلب . وقد اثنى على همته الاب بسّون في تاريخه (ص ٦٢) وذكر الخدم الطيبة التي خدم بها المرسلين حيث ذبّ عن حوزتهم وردّ مكايد اعدائهم وألّف قلوب الشرقيين بلطفه وفضله

١) راجع الآثار الخطيّة الجزء الثاني (Documents II, 5,10)

واشهر منه فرنسوا پيكه الذي خلفهُ في رتبته بعد وفاته. فهذا الرجل كان من اسرة صيارفة فرنسويين من مدينة ليون ولد يوم عيد الفصح من السنة ١٦٢٦ فعُرف منذ نعومة اظفاره بجلالهِ الحسنة وذكاء عقلهِ ورسوخهِ في الدين والتقى فعرفت سموَّ فضلهِ الدوقة دي اغويليون اذ كان يدرس في باريس فطلبت من الملك لويس الرابع عشر ان يتعين فرنسوا پيكه بصفة قنصل عام على حلب. فاجاب الملك الى ملتمسها بعد ان تحقق ما اتَّصف بهِ الشاب من السجايا الطيبة مع كونه لم يتجاوز السنة ٢٦ من عمرهِ. فما وصل الى حلب حتى اقرَّ الجميع بفريد خلاله وتيسروا فيهِ الخير للوطن وللدين معاً. ولم يخب ظنهم فيهِ فانَّ هذا الرجل العظيم قضى في حلب تسع سنوات كان لهُ في كل يوم منها مبرَّة بل مبرَّات فانهُ منذ وصوله اكتسب ثقة ابناء دولته بنزاهته واستقامته وتجرُّدهِ لنجاح امورهم. واجتلب مودة النصارى على اختلاف طوائفهم بما اظهر من التقى والتدين واكرام ارباب الدين ومساعدة المسيحيين في كل حاجاتهم الدينيَّة والزمنيَّة. بل تودَّد للمسلمين وعمَّال الدولة بما كان يجود به عليهم من الصلات والالطاف حتى ضربوا المثل في كرمه. اما المرسلون فعدُّوه كواحد منهم لما راوا من فضله العميم ومن غيرته المتقدة في خدمة الكنيسة الكاثوليكية وترقية شؤونها بين اهل الشرق

على ان القنصل پيكه مع ما كان مزداناً بهِ من الصفات كان ذا اباء عظيم وحمية جنسيَّة لم يحتمل معهما ضيماً ولم يرضَ بظلم او جور فكان في الدفاع عن حقوقه او حقوق ذويه لا يخاف لومة لائم ولمَّا اراد بشير باشا ان يهضم شيئاً منها تصدى لهُ وردَّ بشهامة كل مطالبه غير مكترث لغيظه ووعيدهِ. وداوم على خطته حتى توالت الشكاوى على الوالي الى الباب العالي فاراد السلطان عزله لكنَّ بشير باشا عصى على الدولة وجمع الجند لمحاربة جيوشهم فخاف نصارى حلب على نفوسهم ونسائهم وذراريهم الَّا ان القنصل پيكه اوقف نفسهُ للذَّود عن حياضهم فلم يصابوا بأذى بل جاهر بشير باشا باكرام القنصل وفوَّض اليه احكام النصارى فكان الكل بلسان واحد يشكرون عدله واستقامته حتى جعل المسلمون انفسهم يتحاكمون اليه. فمنع بجاهه كثيراً من المظالم ريثما اوسل الباب العالي عسكراً لمحاربة بشير باشا تحت قيادة حسن باشا مستشار الدولة الذي كان سابقاً كاخية بشير باشا في حلب. فلمَّا قدم

بجيشه الى الشهباء. ارسل الى القنصل بيكه واكرمهُ ايَّ اكرام واتفق معهُ على الوسائل لقصّ جناح الثورة فتمّ لهُ الامر كما شاء. فعظم في اعينه القنصل واهداه اثمن الهدايا من جملتها آنستان من اجمل فتيات دارهِ فردَّهما القنصل شاكرًا ومُعلناً بنذره للعفة. فكان هذا الفعل داعياً للعجب والانذهال في اعين جميع اهل حلب. وثبت القنصل بيكه تسع سنوات في حلب قدوةً لاهلها في كل الفضائل المسيحيَّة الى ان قدَّم استعفاءهُ ليلبي دعوة الله في الكهنوت فسافر سنة ١٦٦٢ الى رومية ومعهُ ٢٥ من الاحداث اختارهم ليدرسوا في مدرسة انتشار الايمان ومدرسة الموارنة ثم يعودوا ويسعوا في خدمة ابناء طوائفهم. وبعد ان واجه في رومية الحبر الاعظم اسكندر السابع الذي استخبره بالتفصيل عن احوال كنائس الشرق ثم باركهُ واثنى على حسن دينه عاد الى فرنسة واستعدَّ لدرجة الكهنوت فسيم كاهناً بعد سنتين وبقي في ليون مدةً يباشر كل اعمال خدمة النفوس بغيرة لا تعرف الملل وكان الملك والكرادلة وكبار الدولة يطلبون مشورتهُ في معرفة احوال الشرق فخدم الشرقيين خدماً لا تحصى. الى ان اختاره الحبر الاعظم اينوشنسيوس الحادي عشر كقاصد رسولي على بابل وبلاد العجم فرُقّي الى درجة الاسقفية في ايلول سنة ١٦٧٧. ثم علم البابا حاجة كنائس الشام الى قاصد للنظر في امورها وتوطيد الايمان في قلوب المرتدين الى الكثلكة فعهد الى السيد بيكه بهذه القصادة فعاد الى حلب ودبَّر كل شيء بحكمته كما سترى ثم سافر الى العراق العجمي ليمتني بكنيسة بابل فخرج من حلب سنة ١٦٨١ واجتمع ببطريرك الكلدان يوسف الاوَّل في ديار بكر ثم رحل الى جهات الارمن بامر الكرسي الرسولي فزار كنائسها ثم دخل العجم وحظي في اصفهان بمواجهة الشاه عباس سنة ١٦٨٤ وقدم لهُ رسالة ملك فرنسة والطافهُ. ثم رحل الى مدينة همدان حيث اخذ يُعنى بكل شؤون كنيسة بابل وكنائس العجم المنوطة بتدبيرهِ لكنهُ اصيب بعد اشهر بداء عُقام فاستعد للملاقاة ربِّه ومات موت الابرار في ٢٥ آب سنة ١٦٨٥ وكتبت ترجمة حياته المطوَّلة فطبعت في باريس بتفاصيلها الشائقة (Vie de Messire François Picquet, *Paris*, 1732)

وقد اطلنا في ذكر اعمال فرنسوا بيكه لما له من الفضل في ترقي الكثلكة في حلب كما سترى وكان لمَّا قدَّم استعفاءهُ عين كخلف لهُ في وظيفته رجلًا اختبر تقاه

وغيرتهُ اسمهُ فرنسوا بارون (Fr. Baron) الذي اقتفى آثار القنصل پيكه وخدم مثلهُ صوالح الوطن والدين انصح خدمة كما شهد عليه رؤساء الرهبانيَّات الفرنسويَّة الثلث في حلب اي اليسوعيون والكبوشيون والكرمليتان في رسالتهم المؤرخة في سنة ١٦٦٢ وكذلك بطاركة الارمن والسريان والروم في رسائلهم الى ملك فرنسة سنة ١٦٦٣ (١

فكان هؤلاء القناصل كما سبق عضدًا للمرسلين الذين ضاعفوا همَّتهم في فلاحة كرم الربّ الموكل الى عنايتهم . وكان املهم الكبير ان يجلبوا الى الكنيسة الكاثوليكيَّة امّ الكنائس المنفصلين عنها دون جدال او خصام فيقنعوهم بصحة العقائد الرومانيَّة استنادًا الى تعاليم اجدادهم وآباء كنائسهم وشواهد طقوسهم

وكان افتتاح اشغال المرسلين مع الموارنة وكلهم كاثوليك بسطاء القلب مستعدُّون لقبول تعاليم الايمان برغبة وسرور . وكانوا فقراء قليلي العدد يخدمهم كهنة من لبنان ذوو علم زهيد يرتزقون بالحياكة وكنيستهم على اسم النبي الياس صغيرة في حي الجديدة . فانكبَّ المرسلون على تدبير هذا القطيع الصغير فرعوه بكل قواهم وثبتوه في الايمان القويم وانعشوا فيه روح التقى والاقبال على الاسرار . فكان الموارنة في مقدمة الجميع في ممارسة الفضائل المسيحيَّة واستماع الارشادات والمواعظ واتخاذ العبادات الكنسيَّة والانضواء في الاخويَّات الصالحة . واذ سعى بعض ذوي الاغراض ان يضعوا حدودًا لغيرة المرسلين بشكايات باطلة رفعوها الى غبطة البطريرك يوسف العاقوري لم تلبث هذه الغيمة ان تنقشع . فضاعف المرسلون اهتمامهم بموارنة حلب ثم تحسنت شؤونهم واخذ عددهم يربو شيئاً فشيئاً فبلغ سنة ١٦٧٠ نحو ١٥٠٠ وناهز ٤٠٠٠ سنة ١٦٨٥ . وفي ترجمة حياة القنصل پيكه (vie de Fr.Picquet,p.50-54) انهُ انقذهم من شرور معاديهم ونال لهم من المجمع المقدَّس ومن اهل البرّ في فرنسة صدقات واسعة كان يوزّعها عليهم وكان يوصي بكهنتهم المسافرين الى اوربَّة لجمع الحسنات . واذ راى اليسوعيون ان كنيسة النبي الياس ضاقت بهم سعوا لدى الفقراء لينالوا لهم فرمانًا لتوسيع تلك الكنيسة لا سيما الاب ديشان

(١ راجع الآثار الخطيَّة (Documents, I, 467, 469, 475)

(P. Deschamps). وما لبث بعض تلاميذ مدرسة الموارنة في رومية ان عادوا الى وطنهم واشتغلوا مع المرسلين في تهذيب ابناء طائفتهم واعدّوا لها قرناً ذهبيًّا في الجيل التالي على عهد الطيب الذكر جبرائيل فرحات

وكانت خدمة المرسلين للكنيسة السريانية اخطر واعظم. فانّنا روينا سابقاً ارتداد اندراوس اخيجان بن عبد الغال مربّي الى الكثلكة وسيامتهُ اسقفاً على حلب بيد انَّ هذا الحبر الجليل ما كاد يجلس على كرسيّهِ حتى قامت قيامة اليعاقبة عليهِ وضايقوه بضروب الدسائس فخاف اندراوس على حياتهِ وهرب الى لبنان لكن المرسلين بمساعدة القنصل پيكه نالوا لهُ الفرمان الشاهاني من الباب العالي مثبتاً سلطتهُ على سريان حلب وعرضوا على الوالي ابرهيم باشا واقع الحال وبينوا لهُ خباثة اليعاقبة. فامر الوالي بارجاع اندراوس الذي اخذ منذ ذاك الحين يسوس رعيتهُ بكل تُقى ويدعو طائفة السريان الى نبذ البدعة اليعقوبيَّة واتّباع الكنيسة البطرسيَّة. ومع ما اصابهُ من المشاقّ من قبل المخالفين بقي في منصبهِ وعرفهُ انكرسي الرسولي بل ارسل لهُ بطريرك اليعاقبة منشوراً يقرّهُ على حلب ويصرّفهُ في الرئاسة. فكان ذلك فوزاً عظيماً للكثلكة. ولم يزل الاسقف اندراوس يجدّ ويكدّ في ارتداد السريان المخالفين حتى قلع من قلوبهم زوان الضلال (١

على انَّ المرسلين وكاثوليك حلب لم يكتفوا بما نالهُ اندراوس اخيجان من التقدُّم لكنهم راوا ان الايمان الكاثوليكي لن ترسخ قدمهُ في الكنيسة السريانية ما لم يكن لهم بطريرك كاثوليكي. فساعدهم الزمان في ادراك مأربهم. ففي تلك الايام توفّي بطريرك اليعاقبة المسمى يشوع بن قشه فراى القنصل الفرنسوي « بارون » خلف المسيو پيكه وكافّةُ المرسلين مع كهنة حلب انَّ تلك انسب فرصة لترقية اندراوس اخيجان الى الرتبة البطريركيَّة فنال له القنصل البراءة الشاهانيَّة وارسل لهُ البابا اسكندر السابع دوع الرئاسة ورُقّي الى السدة البطريركيَّة في ٢٠ آب سنة

١) راجع كتاب عناية الرحمان في هداية السريان للسيّد ديونوسيوس افرام نقّاش (ص ٤٣–٥٠) وكتاب الزهرة الذكيَّة في البطريركيَّة السريانيَّة للقس اسحاق ارملة (ص ٨٨) والسلاسل التاريخيَّة في اساقفة الابرشيَّات السريانية للقبكنت فيليب دي طرازي (ص ١٧٨–١٨٧)

١٦٦٢ على يد بطريركين كانا اعلنا بخضوعهما للكنيسة الرومانيَّة اي البطريرك مقاريوس زعيم الروم الملكي وخشادور بطريرك سيس على الارمن مع مطران حلب يومئذ روجيحان اخي اندرواس الذي سُقف في ذلك اليوم عينه ليساعد البطريركين في رتبة تنصيب البطرك الجديد. فكان اندراوس اول بطريرك كاثوليكي على السريان بعد رجوعهم الى طاعة الكنيسة الرومانيَّة. واضحت حلب مهدًا لتلك الطائفة الكريمة بمساعي المرسلين الفرنسويين

على ان الكنيسة السريانية لم تنجُ من الشدائد والاضطهادات فانَّ اعداءها الباقية تواطأوا عليها ولم يزالوا يتوسلون بكل الوسائل لمعاكسة الكاثوليك الذين بذلوا النفس والنفيس لحفظ وديعة الايمان. وعقب السيد اندراوس في رتبته بعد وفاته الصالحة (١ سنة ١٦٧٧ مطران القدس السيد غريغوريوس بطرس شاهادين الذي نال ايضاً من الحبر الاعظم درع التثبيت ومن الباب العالي الفرمان الشاهاني وأقيم بطريركاً في ٢ نيسان سنة ١٦٧٨ في حفلة تولَّاها مطران الموارنة جبرائيل البلوزاني ومطرانان ارمنيَّان مع مطرانين جديدين سيما في ذلك اليوم للسريان يشوع مصر شاه لكرسي اورشليم ورزق الله امين خان لكرسي حلب. وقد جاهد البطريرك الجديد لحسن جهاد في سبيل ايمانه ولاجله سيق اخيراً الى المنفى بمكايد اعداء الكثلكة رغماً عمَّا نالهُ من فرمانات الدولة وأُرسل سنة ١٧٠١ الى قلعة آطنه فوصل اليها مع المطران رزق الله امين خان بعد شقّ النفس فتوفي المطران ساعتين بعد وصوله ولم يلبث البطريرك ان تبعهُ للدار الباقية بعد ثلثة اشهر فلفظ روحهُ البارَّة في ٢٨ شباط سنة ١٧٠٢ وبموتهما نالت الكنيسة الحلبيَّة فخراً جديداً اعني نعمة الاستشهاد كما انَّ المرسلين الفرنسويين وجدوا في ثبات المرتدّين الى الحظيرة البطرسيَّة تعزية عظيمة لعلمهم بانَّ دم الشهداء افضل ما تُسقى بهِ زريعة الايمان لتنمو وتزكو. واليوم كانا يرى نتيجة تلك المحن بازدهار الكنيسة السريانيَّة الكاثوليكيَّة وانحطاط اليعقوبيَّة

وكما نفضت الكنيسة السريانيَّة غبارها في حلب في النصف الثاني من القرن السابع عشر كذلك الكنيسة الارمنيَّة استقت فيها من مناهل المرسلين الفرنسويين.

(١) كانت رتبة جنَّازهِ تقرأ للكنيسة الكاثوليكية اذ حضرها قناصل الدول وممثلو الدولة وصلَّى عليهِ ارباب خمس طوائف كاثوليكية بلغات كنائسهم

سبق لنا القول عن مساعي الاب شيزو اليسوعي في تهذيب ارمن حلب فبلغ عدد المتكثلكين منهم الى الالف في سنة ١٦٥٢. وجاراه في غيرته اليسوعيَّان الاب گوده والاب اميو (Amieu) ثم الاب سيلفسترس رئيس الكبوشيين والاب برونو رئيس الكرمليتان ولكلهم فضل كبير في تبشير ارمن حلب حتى ردُّوا اسقفاً ارمنيًّا كان من بلاد القبادوق مقيماً في الشهباء. على ان الاكليروس الارمني كان منقسماً فمنهم من يعضد المرسلين وينشطهم ومنهم من يعتبر اعمالهم كبخس واجحاف بالكنيسة الارمنيَّة. وكان وقتئذٍ مطران حلب الارمني محبًّا المرسلين يطرئ غيرتهم ويشكر اعمالهم الَّا انَّ جاثليق سيس في قيليقية الذي كان يقيم في حلب واسمهُ طورس (١٦٤٣ — ١٦٥٨) كان معادياً للكثلكة اخذ يحرّش مطران حلب على المرسلين ولعلهُ كان اغراه عليهم لولا ان كبير جاثلقة الارمن جاثليق اشتميازين المسمى فيليب اغباك (١٦٣٢—١٦٥٥) مرَّ في تلك الاثناء بحلب ورأى بالعيان مشروعات المرسلين فاثنى على همتهم واعلن لهم بمكتوبات صدره وبعواطفهِ الكاثوليكيَّة ودافع عنهم لدى ابناء ملَّتهِ فزاد بذلك اعتبار ارمن حلب للمرسلين وتواردوا لاستماع ارشاداتهم فانضوى منهم كثير الى البيعة البطرسيَّة

لكنَّ الكثلكة بين الارمن بلغت عزَّها بعد ذلك بقليل لمَّا توفي طورس وجلس على كرسي سيس الجاثليق خشادور (١٦٥٨ — ١٦٧٣) فاطلق الحريَّة التامَّة للمرسلين على ابناء ملته وكان يتردَّد الى منازلهم ويعمل بمشورتهم. ولدينا رسالة منهُ الى لويس الرابع عشر ملك فرنسة سنة ١٦٦٣ يصرّح فيها بايمانهِ وكذلك ارسل للحبر الاعظم اسكندر السابع صورة ايمانه على يد الاب سيلفسترس الكبوشي (١ واعلن بطاعتهِ لكرسي هامة الرسل. ثم رحل الى سيس وبقي على ايمانهِ وباسمه جاء الى حلب احد الاساقفة الارمن فخطب في صحة الايمان الكاثوليكي امام الشعب كلهِ واثبت حقيقة الرئاسة البطرسيَّة

وفي اثناء ذلك ارتدَّ كثيرون من الارمن في مقدَّمتهم مطران حلب وثلاثة عشر كاهناً كانوا كلهم يعتقدون عقائد الكنيسة الرومانية ويمارسون وصاياها. ولم

١) اطلب الآثار الحقيقيَّة (Documents, I, 467.473-473)

يستطع جاثليق القدس ازدوقدزور الداروني (١٦٤٥ — ١٦٧١) ان يثنيهم عن عزمهم

وفي تاريخ الارمن لتشامتشيان (Tchamitchian : *Histoire de l'Arménie*. III, 698) ما يؤيد ارتداد خشادور فانهُ روى هناك « ان هذا البطريرك في السنة ١٦٦٣ كتب الى البابا اسكندر السابع كتاباً على يد اسقف اشوتس اعلن فيهِ بايمانهِ الكاثوليكي واعترف برئاسة الحبر الروماني على الكنيسة جمعاء. وقد امضى معهُ ذلك الكتاب ثلاثة عشر اسقفاً ارمنياً وتسعة من رؤساء الكهنة (ورتبيط) »

فهذا الفوز الكبير كاد ينفي بين ارمن حلب آثار الهرطقة لاسيما بعد ان نما عدد الكهنة المرتدين وسيم ثمانية كهنة جدد بوضع يد البطريرك خشادور حتى بلغ عددهم عشرين كاهناً كاثوليكياً. على ان خروج خشادور من حلب نشط المنفصلين على مقاومة الكاثوليك فسعوا لدى الحكومة بهوانيس الذي كان اقيم كوكيل استقفي عليهم. فخاف هوانيس على نفسهِ من شرور الساعين وتوارى مدّة لكنّ القنصل بارون بنفوذهِ تمكن من كبح جماح المضادّين وكشف دسائسهم لدى ولاة حلب

وكان ختام القرن السابع عشر كصراع بين الارمن الكاثوليك يندهم القناصل والمرسلون الكاثوليك وبين الارمن الغريغوريين الذين خافوا ان يفقدوا شيئاً من امتيازاتهم الجنسيّة وصوالحهم الزمنيّة اذا اقرّوا بالرئاسة البطرسيّة. وقد قام في اواخر ذلك الجيل عدّة اساقفة يترشحون للبطريركيّات الثلث اعني جاثليقيّة سيس وجاثليقيّة القدس وجاثليقة اتشمياذين منهم كريكور بدساغ (١٦٨٣—١٦٨٩) وازدوقدزور السموني وماتيوس سارّ القيصري وكانوا كلهم يتظاهرون بالكثلكة رجاء ان يفوزوا برتبة الجاثليق او يسعفهم القناصل لدى الباب العالي لنوال الفرمان المثبت لرئاستهم. وفي سجلّات الآباء الكبوشيين ان كريكور بدساغ جاثليق سيس جحد اضاليل الارمن على يد الاب پيار دي بلوا (Pierre de Blois) سنة ١٦٨٩

فهذه الغايات الزمنية كانت تريب المرسلين في صحة ايمان رؤساء الارمن الّا انهم كانوا يرملون انّ ايمانهم سوف يقوى مع الزمان ويتأصلون شيئاً فشيئاً في الروح الكاثوليكي كما حصل بعد ذلك في اواسط القرن الثامن عشر (لهُ بقية)